الفصل الثالث

الديانة المصرية القديمة

اكتشف العلماء في القرن التاسع عشر الميلادي حقيقة المصريين، ودينهم، وشرائعهم، ومدنيتهم، وتقاليدهم، وعاداتهم وآدابهم؛ وذلك بفضل ما عثروا عليه من الوثائق التاريخية التي وجدت مكتوبة على أوراق البردي، ومن الكتابات والنقوش التي وجدت على واجهات المعابد، والهياكل، والقبور، والمسلات، والأعمدة، وأغطية التوابيت، وداخل تلك التوابيت.

وما جاء في مذكرات العالم الأثري مانيتون يؤكد أن هناك أنبياء ورسلاً أرسلوا إلى مصر، وأن الأنبياء الذين بشروا برسالات الله في مصر، هم الذين دعوا الناس في الهند وفي قارة آسيا إلى عبادة الله وتوحيده وعدم الإشراك به، ولكنهم يقولون أن الدعوة في مصر سبقت الدعوة في الهند، وأن نبي المصريين هو إدريس عليه السلام، وأنه هو الذي انتقل إلى الهند فبشر برسالته.

إدريس عليه السلام:

وما جاء في كتب المؤرخين عن إدريس عليه السلام، يروي أنه ولد بمدينة (أدفو)، حيث هبط أهله الذين كانوا يسكنون بسابل ثم رحلوا إلى مصر، وأنه كان يسمى (جوروس). وقيل أن إدريس هو (خانوخ) باللغة العبرية الذي أطلق عليه باللغة العربية (أخنوخ)، وسمي في اللغة الهيروغليفية (خوروس)، أو (هوروس)، وعرف في اللغة اليونانية باسم (هرماكيس)، ثم عرف باسم (هرمس)، وسماه البطالسة فيما بعد (أغثاذي مون) المصري، وسمي في الكتب المنزلة (إدريس). ونسبه هو إدريس مهائيل بن قينان بن آنوس بن شيث ابن آدم عليهم السلام، وقد ذكر المؤرخون أن مدة حياته كانت اثنين وثمانين سنة، عاش خلالها. كما دعا إلى الزهدو والمحبة، والعدل، والإحسان، وكان قربانه البقول والذبائح. وأنه أول من عرف العلوم الكونية، والجيولوجيا، والرياضيات، وكثيرًا من لغات أهل الأرض، حتى قيل عنه أنه كان يملك من الأسرار والمواهب التي كانت تؤهله لأن يكون الداعي المجاب، حيث كان يحدّث كل قوم بلغاتهم ولهجاتهم، مما جعل الناس تأنس إليه وتلتف حوله.

تعاليم إدريس عليه السلام:

وقد عرفت تعاليم إدريس عليه السلام من الآثار التي اكتشتفت، وأخصها خاتمه الذي كان يتمنطق به. ومن أقواله التي وجدت مكتوبة على ورق البردي الذي سرقه الأجانب ووزعوه على المتاحف ودور الآثار في

أوروبا، فقد وجد مكتوبًا على خاتمه: (الصبر والإيمان بالله يرثان الظفر). كما وجد على حزامه حكم بالغة ودروس قيمة منها: (حفظ فروض الشريعة من تمام الدين، وتمام الدين من كمال المروءة، والمروءة خاصة من خواص الإنسان المتقي). وقد عثر ضمن آثاره على فراش كان يصلي عليه مصنوع من الحصير، وكان مكتوبًا على ذلك الفراش: (السعيد من نظر نفسه في مرآة صلاته وعبادته). كما كان من أقواله المأثورة: (حياة النفس في الحكمة، وموتها في الجهل).

عقائد المصريين قبل الكهنة:

كانت عقائد المصريين بادئ ذي بدء: هي العقائد التوحيدية التي دعا إليها نبي الله إدريس عليه السلام، وعرفوا أن الله واحد لا شريك له في الذات والصفات، كما كانت عبادتهم خالصة تتمثل في الرهبة، والاحترام، والخوف، والطاعة. يؤمنون أن الله قديم أزلي خالق، لا بداية له ولا نهاية، يَفني ولا يُفنى، كل شيء زائل وهو باقٍ، وعرفوه باسم آتون، وجعلوا لهذا الاسم معنيين: أحدهما ظاهر، والآخر خفي، كما أعطوا الاسم الظاهر معنًا: أنه إذا ظهر بمثالِه النوراني (الشمس)، سمى آمون، وأما الاسم الخفي: فهو الذي قام به كل الوجود، يوهب العطايا، ويعطي ويأخذ، وبذلك سمي (رع)، ومن هنا كان اسما (آمون– رع).

وقد جاء في مؤلَّف للعلامة (ماسبيرو) –وهو أستاذ فرنسي–: (وكان إله المصريين الأول عالما بصيرًا يُدرِك ولا يُدرَك، موجودًا بنفسه، حيًا بنفسه، حاكمًا بنفسه، حاكمًا في الأرض والسماوات؛ فهو أب الآباء، وأم

الأمهات، لا يفنى ولا يغيب، يملأ الدنيا وليس له شبيه ولا حد، ويوجد في كل مكان). وقد وجد أيضًا في هيكل إيزيس بصان الحجر نقش قديم يتضمن كلمات منسوبة للإله جاء فيها: (أنا كل شيء كان، وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون، ومحال على من يَفنى أن يزيل النقاب الذي تنقّب به وجه من لا يُفنى).

وقد كان قدماء المصريين في أناشيدهم يترنمون باسم إله واحد، وينشدون للخالق المصور الذي له الأسماء الحسنى، الذي خلق للإنسان عينين، وهداه النجدين، ووهب له أذنين ليسمع بهما أناشيد ذلك الإله الذي استطاع الإنسان أن يبصر قدرته، معترفًا بأنه مولاه ولا مولى له إلا الله، وقد ورد في بعض الأناشيد والأدعية الواردة في كتب قدماء المصريين: (يا مولاي ويا سيدي، إنك خلقتني وصورتني، وجعلت لى عينًا أبصر بها آثار قدرتك، وآذانًا أسمع بها أناشيد تقديسك).

دور الكهنة وانحراف الديانة المصرية:

وبنفس الطريقة التي انحدرت بها الديانة البرهمية، وفي نفس الطريق الذي سار فيه الكهنة البراهمة، وبنفس الأسلوب انحرف الكهنة المصريون واتخذوا من صفات الله ثالوثًا، وكما اتخذ البراهمة الثالوث (برهما، وفيشنو، وسيفا)، اتخذ المصريون من صفات الله وهي (الوجود، والحكمة، والحياة) الثالوث (آتون، ورع، وآمون).

وما زال المصريون يستحدثون على مر السنين أسماءً وآلهة، حتى صار الثالوث تاسوعًا غير آلهة ثانوية منسوبة إلى هذا التاسوع. وظلت الديانة

المصرية تتطور وتنحرف حتى وصلت إلى عبادة النار، والنجوم، والكواكب، وما إلى ذلك من الظواهر الطبيعية التي تاه في عرفها وكنهها المصريون. وإن كانت عبادة الظواهر الطبيعية حفزت عبادها على أن يكتشفوا أسرارها مما خدم العلم والعلماء، وكشف كثيرًا من الأسرار التي أصبحت فيما بعد من الركائز الثابتة والقواعد الأساسية في علوم الفلك، والجيولوجيا، والرياضيات.

وإذا كان المصري القديم قد انحرف في عبادته تحت تأثير التعاليم المبتدعة، وأهم تلك التعاليم تعدد الآلهة، وخير دليل هو التاسوع المصري الذي أشرنا إليه؛ والتاسوع عبارة عن الثالوث الأول (آتون، ورع، وآمون)، واشتق منه الثالوث الثاني (تيت– نوت– شو)، ثم جاء الثالوث الأخير من التاسوع (إيزيس، وأوزوريس، وسيت)، ثم كانت هناك آلهة ثانوية نذكر منها ثمانية هي: (هاتور، أو هنريت، ونيسير تشر، وبوناشيت، وتنجيت، وتوتو، ومعت، وبتاح، ونيفون). وإليك التاسوع المصري وصفة كل إله ووظيفته.

١– آتوم آو آتون: الإله الخفي الذي لا يظهر إلا بصفاته وهو نور الأنوار.
٢– رع: الذي تشخّص فيه النور فصار عطاء وخلقًا (الخلق والرزق).
٣– آمون: ظهور القدرة المشرقة في الشمس؛ وهو مظهر رع الذي يوصل عطاءه إلى المخلوقات، وفي النهاية صار تمثالاً لطيبة.
٤– نيت: الأثير العام.

٥- نون: السماء بأفلاكها وكواكبها والهيولة العامة.

٦- شو: الجو أو الموجات الكهربائية الموجبة، ويشتق منه الإله (تفنوت): وهي الموجات السالبة، وهذا يعطى نفس معنى فشنو عند البراهمية.

٧- إيزيس: بمعنى الحياة، أو الروح.

٨- أوزوريس: بمعنى النماء والازدهار، وهذا الإله هو الذي سيحاسب الموتى.

٩- سيت: المدمر، أو الفناء.

وأما عن الآلهة الثمانية الثانوية، فنذكرها مع صفاتها ووظيفتها:

١- هاتور، أو هتريت: إله الطبيعة.

٢- تيسير تشر: إله النظام والقوانين.

٣- يوتاشيت: إله الفيض الشمس.

٤- تحييت: إله الأطياف الانعكاسية.

٥- شوت: إله العلم في معناه العلم.

٦- معت: إله الحكمة.

٧- بتاح: إله القدر.

٨- تيفون: إله الشر.

وكانت صلاة المصريين الذين انحرفوا، موجهة إلى التاسوع المصر، وكانت دعواتهم وأناشيدهم تنادي قوى الطبيعة على أنها آلهة، وقد كانت تلك الصلوات تصدر منهم تقربًا للتماثيل الرمزية التي أقيمت لآتون، ورع، وآمون في

طيبة من أهم ظواهر الشرك والوثنية، حيث ظن المصريون المتأخرون الذين أعقبوا حكم الكهنة: أن تلك التماثيل الرمزية آلهة مختلفة فعبدوها، وتعددت الآلهة وصارت المدن مليئة بتلك الآلهة، وكانت لكل مدينة آلهتها التي تقدسها دون الآلهة الأخرى، فقد كان موطن (أزوريس) في أبيدوس، و(بتاح) في منفيس، و(آمون) في طيبة، و(هوروس) في أدفو، و(هاتور) في دندرة، وكانت مدينة طيبة دون سائر المدن مملوءة بالمعابد والتماثيل، حتى قام إخناتون بثورته المشهورة لتوحيد الإلهة وعبادة إله واحد بعد الآلهة المتعددة، والتي كاد أن يكتب لها النصر، لولا؟

وهكذا ظلت الديانة المصرية تتنقل من طور إلى طور آخر تنازليًا، فتطورت من عبادة إله واحد، ثم عبادة آلهة ثلاثة، ثم آلهة تسعة، ثم تطور التاسوع إلى ضعف عدده، ثم ظل عدد الآلهة يأخذ في الازدياد حتى بلغ ما يقرب من المائة؛ بين اسم لفلك، وصفة لكوكب، وعظمة لظاهرة طبيعية، وتقديس لطير أو حيوان. وكثيرًا ما كانت بعض المدن تعهد ملوكها على أنها آلهة، وكانوا يقيمون لهم الصلوات، ويقدمون لهم القرابين، ويرفعون إليهم البخور. وظل المصريون على حالتهم من الوثنية والشرك حتى هاجم الفرس واليونان مصر وأغاروا عليها، فهدموا المعابد، وخربوا الهياكل، وحطموا التماثيل، وحاربوا الكهنة أينما كانوا. وعندما افتتح الرومان مصر هدموا بقية الهياكل، وأزالوا كثيرًا من المعابد، وأبطلوا كثيرًا من العبادة، وكانت الخاتمة أن أمر الامبراطور (تيودور) الروماني بإبطال الديانة المصرية القديمة، واعتبار النصرانية دينًا لمصر.